المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تَعظِيمُ اللهِ تَعَالى
فِي هِدايَات القُرْآن الكَرِيم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

تعظيم الله تعالى لنفسه في القرآن الكريم وأثاره المقاصدية في هدايات الناس

اسم الباحث

أ.د/ عبدالغفار بلقاسم بن نعيمة

أ. د. بن نعيمة عبد الغفار

تعظيم الله لنفسه في القرآن الكريم
وآثاره المقاصدية في هدايات الناس

المقدمة

من أجلّ ما يتلوه الناس في القرآن الكريم تلك الآيات التي تدفع إلىٰ هدايات الناس وإرشادهم إلىٰ أصوب الطرق وأكثرها استقامة، والعديد منها عبر تاريخ الإسلام شكّلت لحظات فارقة ونوعية في إعلان إسلام الناس، كونها تشير بدقة وبسرعة إلىٰ أمر جلل انتبه إليه العقل، وكانت سببا مباشرا في الانتساب للإسلام.

لقد جاء هذا النمط من الآيات وفي مواطن عديدة مرتبطا بقضية العظمة والتعظيم، ودلّت دائما إما علىٰ عظمة المخلوقات، أو عظمة الخالق، أو كانت الأولىٰ دليلا علىٰ الثانية، وهي جميعها في اتساق تام وتدليل متواصل علىٰ الهداية والإرشاد. وحين نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُمۡ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ]، سندرك سريعًا كلا الأمرين معًا، فالآية جامعة لكلّ ما يدلُّ علىٰ العظمة المتناهية والأزلية، ومانعة من كلّ ما لا يقدّر الله تعالىٰ حقّ قدره فعلًا كان، أو قولًا.

تأتي هذه المداخلة تماشيا مع مؤتمر التَّعظيم والهدايات، تعالج مسألة دقيقة في هذا الباب، وهي تعظيم الله تعالىٰ لذاته في القرآن الكريم، وباحثة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم جاء فيها تعظيم الله تعالىٰ لنفسه إجلالًا لذاته أو تذكيرًا لخلقه المؤمنين، أو ذمًّا للمشركين منهم ممّن لم يقدّروه حقّ قدره، ولكلّ موضع سياقه وموضوعه الخاصّ وهي القضية الأساسية لهذه المداخلة.

يهمّنا هنا أن تنطلق إشكالية الموضوع من البحث في أبعاد هذا التمجيد والتعظيم الإلهي ودوره في إثبات مصدرية القرآن، وأيضا أثر تلك الصفات التمجيدية التي أثبتها الله تعالىٰ لنفسه علىٰ إيمان النَّاس وخضوعهم وذلّهم له، ممّا يحيلنا إلىٰ تلك الأهداف المتعلقة بالآثار المباشرة وغير المباشرة لقضية تعظيم الله تعالىٰ لذاته علىٰ هدايات النَّاس وأبعادها الإيمانية، وأيضًا تحديد مجالات ارتباطها بمقاصد القرآن في العبادة والهداية والإرشاد.

إنّه لمن واجب المداخلة أن تشير إلىٰ بعض التوجيهات النبوية الهامة التي تشير إلىٰ عظمة الله تعالىٰ من خلال بعض مخلوقاته، حتىٰ جاء في بعض الأحاديث تشديدًا علىٰ انعدام التفكر والتدبر حال قراءة هذا النمط من الآيات، لما تحمله من دلالات إيمانية وتعظيمية وإرشادية تليق بجلال الله تعالىٰ وعظمته.

تُساهم المداخلة علميا في توضيح أصول التعظيم في القرآن الكريم، من جهة اعتبار تعظيم الله تعالىٰ لنفسه هو الأصل في باب الهدايات، ومجالاته الكونية والحياتية والإنسانية، وأن أي شعور إنساني برغبات النفس الاستكبارية سنزول أمام عظمة الله تعالىٰ، كما يمكن اعتبار تعظيم الله تعالىٰ لنفسه تذكيرا صريحا للمنظومة الإنسانية جمعاء بحق الخالق وعظمته وقدره. وستعمل المداخلة علىٰ الاستدلال لكل هذه الأبعاد والآثار بما يخدم واقع المجتمعات الإنسانية ويضمن صلاحهم.

اعتمدت المداخلة في التحليل علىٰ مجموعة من الأبحاث والدراسات تعلّق بعضها بمسألة التعظيم ذاته، وبعضها الآخر بباب هدايات القرآن، منها ما هو في باب العقائد ومنها ما هو في باب التفسير ومنها ما هو تربوي تأصيلي، استفادت منها المداخلة في بعض المفاهيم العقدية للتعظيم وتخريجاته، فأغلبها تناول قضية التعظيم من جانبها العقدي وركّزت علىٰ حديث القرآن عن التعظيم عموما، في حين اختصّت المداخلة بالحديث عن تعظيم الله تعالىٰ لذاته وكانت مُجبرة علىٰ اختيار ما يُناسب هذا النوع من التعظيم بالضبط، وتوضيح جانبه التربوي في الهداية والإرشاد والتوجيه.

موضوع التعظيم وما تعلّق به من التمجيد والثناء والمدح له ارتباط وثيق بكل قضايا العقائد والعبادات، بل والمعاملات أيضا فمراقبة الله تعالىٰ لا تخلو منها سبيل أو طريق أو مجال، فقد شغل موضوع التعظيم بكل مجالاته ومواضيعه مساحة واسعة من القرآن الكريم، قد يأتي في موضوع التوحيد أو الكونيات أو مجالات الحياة أو تعداد رحمات الله تعالىٰ ورفقه بالخلق، أو أسمائه وصفاته عزّ في علاه، وما ذلك إلا تواف تام مع مقصد القرآن الكريم الأسمىٰ ألا وهو الهداية والإرشاد، ومن خلال ما يلي سنجتهد في تحليل هذا الموضوع لكن في جانب تعظيم الله تعالىٰ لذاته وما آثاره المقاصدية في هداية الناس وإرشادهم.

المبحث الأول: مواضع تعظيم الله لذاته في القرآن الكريم ومجالاته الموضوعاتية

بدءًا وتأصيلًا قال الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ في (المنازل): «التعظيم معرفة العظمة مع التذلل لها، وتعظيم الحق أن لا تجعل دونه سببا أو ترىٰ عليه حقا أو تنازع له اختيارا»[1]، وعلىٰ وفق هذا المعنىٰ الجليل، جاء تعظيم الله تعالىٰ لذاته في مواطن عديدة من القرآن الكريم، تنوعت مجالات هذه المواطن تبعا لتنوع أساليب القرآن وأهدافه، وإذا كنا نعرف في الجملة أنّ هدايات القرآن قد تكون ترغيبا أو ترهيبا، فإن موضوع التعظيم هو أسلوب جلالي، كما أنّ اتصال هذا الموضوع بالعقيدة لا ينفي عنه جوانبه الجمالية أيضا، من خلال هذا المبحث يمكننا تحديد بعض هذه المواضع وبيان مجالاتها ومواضيعها. ولأنها متعددة في القرآن فإنه لا يمكننا اختيار أحدها عن الآخر إلا من باب التمثيل، وقد قال الله تعالىٰ معظّما نفسه جلّ في علاه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام]، وعلىٰ هذا يمكننا التمثيل بالنقاط التالية:

الكونيات مجال رحب في التعظيم الذاتي:

لقد جاء تعظيم الله تعالىٰ لنفسه في المجالات الكونية بابا واسعا ومتفرعا ومتنوعا، نذكر منه ما يلي:

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء]، وتكشف لنا معاجم اللغة أنّ عملية الفتق عملية معقدة وكبيرة جدا لن تصدر إلا عن عظيم جل في علاه، قال الأنباري رَحِمَهُ اللَّهُ: «معناه كانت السموات سماء واحدة وكانت الأرضون أرضًا واحدة ففتقت السماء فجعلت سبع سموات وفتقت الأرض فجعلت سبع أرضين»[2]، قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل]، إذا علمنا أنّ الرَّواسي هي الثَّوابت[3]، والمَيد هو الحركة والزلزلة[4]، فسنصل إلىٰ موضع آخر يؤكِّد هذه العظمة، ويبين ما طبيعة ما ألقىٰ الله العظيم في

---

(١) منازل السائرين (٨١).

(٢) الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٤١٢).

(٣) تحفة الأريب بما في القران من الغريب (١٤٤).

(٤) تهذيب اللغة (١٤/ ١٥٤).

الأرض نحسبه أحد آثارها وهو قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النازعات]، فهي المانعة من عملية الميد، والمؤكدة علىٰ العظمة.

قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء]، ثم بيّن في موضع آخر أثر هذا الحفظ حين قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٦٥].

في جميع هذه الآيات يعرّف الله تعالىٰ بنفسه وقدرته وعظمته، وقد أكّدت العديد من الدراسات والأبحاث الحديثة في مجال الكونيات مدىٰ أثر هذا النمط في إيمان الناس وهدايتهم إلىٰ طريق الحق.

في موضع مثير للدّهشة واستجلاء العظمة المتناهية لله تعالىٰ يتحدّث المولىٰ -عزَّ وجلَّ- عن نفسه مخاطبًا أهل الكفر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر علىٰ كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته»(١)، وفي الآية دليل علىٰ «عظم يدي المولىٰ -عزَّ وجلَّ-»(٢)، وللتدليل علىٰ هذه العظمة التي وصف بها الله تعالىٰ نفسه جاء في الحديث: عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ»(٣).

في إشارة هامة يقدّم الخطاب القرآني لفتة هداية نوعية، إذ ينبهنا أنّ الله تعالىٰ قد يعظّم ذاته بذاته حين تكون الادعاءات الباطلة مانعة من تعظيمه، فيجمع ثلاثية السماوات والأرض والجبال مرّة أخرىٰ في موقف تعظيم لله تعالىٰ وهو يتحدث عن نفسه عزّ في علاه، فيجعل من أقوال النصارىٰ وادعاءاتهم الباطلة داعيا كافيا لحدوث خلل في هذه المخلوقات العظيمة، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١١٣).

(٢) العقيدة في الله (١٧٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٥١٩)، ومسلم (٢٧٨٧).

في الدِّراسات البيانية ما يوضح أنّ في القرآن الكريم تعابير جاءت علىٰ وفق الادعاء، وأنّ السّياق القرآني ينتقل حسب الوضع العام للموقف، وحين نقرأ هذه الكلمات: (وَلَدًا، إِدًّا، هَدًّا)، نُدرك أنّه في (موضع الاستنكار هنا يشتد الوضع بتشديد الدال)، ولأنّ الادّعاء جلل عظيم كما قال الطبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ لِلْقَائِلِينَ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِهِ: لَقَدْ جِئْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ شَيْئًا عَظِيمًا مِنَ الْقَوْلِ مُنْكَرًا»[(١)]، وفي حقّ العظيم عزّ في علاه، فإنّه قد يسبب خللًا في أعظم مخلوقات تعالىٰ علىٰ سيرها الطبيعي، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]، والله تعالىٰ يصرّح في المقام بالأثر الممكن حصوله فهي علىٰ عظمتها هذه قد تتفطّر، قال الضَّحَّاكُ: «﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾، أَيْ: يَتَشَقَّقْنَ فَرَقًا مِنْ عَظَمَةِ اللهِ»"[(٢)].

وكلُّ هذا السياق في توجّه واحد، وهو تعظيم الله تعالىٰ لنفسه، ومن المهم الإشارة أنّ الله تعالىٰ حين ينبّه الناس إلىٰ استشعار عظمته وقدره من خلال خلقه ففي ذلك أيضًا توجيه إلىٰ استحالة الإحاطة المطلقة بتلك العظمة، ولذلك جاء في الحديث الشريف: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أبصر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومًا، فقال: «**ما لكم؟**»، قالوا: نتفكر في الخالق. فقال لهم: «**تفكّروا في خلقه، ولا تفكّروا في الخالق، لا تقدرون قدره**»[(٣)].

إنّ دلائل تعظيم الله تعالىٰ لنفسه واضحة من خلال تلك المفردات التي لا يؤدىٰ المعنىٰ بغيرها تبعا لاختيار اللفظ القرآني، وفي ذات سياق تنزيه الله تعالىٰ نفسه عن افتراءات اليهود والنصارىٰ ومشركي العرب في نسبة الولد له يأتي، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة]، فقد اجتمع في قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ كلُّ دعائم التعظيم والتنزيه والجلال، وأصله: تنزيهٌ لله تعالىٰ عن كل ما لا يجب أن يوصف به[(٤)]. وقد تكرّر إنكار الله تعالىٰ علىٰ المدّعين اتخاذ الولد في القرآن أحد عشر مرة. فهي دعوىٰ هزيلة باطلة، تجعل المخلوق المربوب المخلوق جزءًا من الخالق العظيم[(٥)].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٦٣٥).
(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٦٦).
(٣) الترغيب والترهيب (٦٧٠).
(٤) العين (٣/ ١٥١).
(٥) الله يتحدث عن نفسه (٢٣).

دلائل التعظيم الإلهي الذاتي في آية الكرسي:

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة].

جاءت هذه الآية بتسع مقاطع مختلفة في أسلوب تدليل الله تعالىٰ علىٰ عظمته، قد نلخصها في ما يلي: الوحدانية، الحياة، اليقظة، الملك، الحكم، العلم، الإحاطة المطلقة، القدرة، العلو والعظمة، وفي كتب الحديث رواية بطرق متعددة، تدلُّ علىٰ أنّها أعظم آية في القرآن لاشتمالها علىٰ كل جامع لعظمة الله ومانع من عدمها، جاء في صحيح مسلم: عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ**[1] **الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»[2]، وإنّما حازت هذا الفضل «لأنّ الله تعالىٰ عرفنا بنفسه تعريفًا كاملًا وافيًا لا مزيد عليه، بحيث تتجلىٰ عظمته من خلال تلك التسع موجبات للتعظيم والتعريف السالف ذكرها، كما أنّ جميع مقاطعها دالة علىٰ التعظيم والعظمة»[3].

قد يكون من المناسب في هذا المقام الاستدلال بآية العرش لتناسبها في تعظيم الله لنفسه مع آية الكرسي، فالله تعالىٰ أعلَمَ في كتابه الكريم أنّه استوىٰ علىٰ العرش في سبعة مواضع ولكل سياقها وحالها ومقامها، لكنها جميعا توجّه بتلك العظمة المتناهية والمطلقة لله تعالىٰ تحدّث فيها الله تعالىٰ عن عظمته وقوته وقدرته، ربما يمكننا تقريب صورة تلك العظمة بالاستئناس بالحديث النبوي الشريف في وصف عظم العرش، فعن جابر بن عبد الله، عن النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قال: «**أُذِنَ لي أن أُحَدِّث عن مَلَك من ملائكة الله من حَمَلة العرش؛ إنَّ ما بين شحمة أذنه إلىٰ عاتقه مسيرة سبع مائة عام**»[4]، فإذا كانت هذه صفة واحد من حملة العرش، فكيف بالعرش ذاته، وكيف بعظمة من استوىٰ عليه جلّ الله تعالىٰ في علاه.

---

(١) أي: هنيئًا لك.

(٢) أخرجه مسلمٌ (٨١٠).

(٣) ينظر، عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة (١/ ١١١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧).

مواضع حديث الله تعالىٰ عن العرش تنوّعت بين تعظيم ذاته إمّا بامتداح نفسه باستوائه عليه[١]، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه]، أو وصف ذاته بربوبيته عليه[٢]، قال تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [المؤمنون]، أو بأنه هو مالكه وصاحبه[٣]، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾ [البروج].

ليس عدلًا أن تغفل المداخلة الإشارة إلىٰ بداية الآية لمناسبتها لمدلول العظمة، فقد مجّد الله تعالىٰ نفسه فيها ووصف نفسه بالحياة والقيومية، جاء ذكره تعالىٰ لها جمعًا في ثلاث مواضع[٤] من القرآن الكريم، فالحياة والقيومية مجتمعان لا يليقان إلَّا بذات الله تعالىٰ الخالق، وهما علىٰ صلة جليلة بالسنة والنوم المذكوران بعدهما، كما أنّ لها دلالة عقيدية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فنفي أَخْذ السِّنَة والنوم له مستلزم لكمال حياته وقيوميته، فإنّ النوم ينافي القيومية»[٥]، وقال ابن القيم: «صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطىٰ هو اسم الحي القيوم، والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام، ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة؛ لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات، ونقصان الحياة يضر بالأفعال وينافي القيومية؛ فكمال القيومية لكمال الحياة؛ فالحي المطلق التام لا يفوته صفة الكمال البتة، والقيوم لا يتعذر عليه فعل ممكن البتة»[٦].

من مسالك تعظيم الله لذاته دعوته العباد للتفكر والتدبر

التدبر مقام جليل، شغل أذهان العلماء وظهر في مصنفاتهم بمناهج وطرق وأساليب وآثار، وإنّ نظرا مُلفتا في القرآن الكريم سيُحيلنا إلىٰ بعض المواضع التي دعا فيها تعالىٰ الناس إلىٰ التدبر في القرآن عموما ليس فقط في مجال دون مجال، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ

---

(١) وردت في سبعة مواضع في القرآن الكريم.
(٢) وردت في خمسة مواضع في القرآن الكريم.
(٣) وردت في أربعة مواضع في القرآن الكريم.
(٤) سورة البقرة (٢٥٥، سورة آل عمران (٢)، سورة طه (١١١).
(٥) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (١٧/ ١٠٩).
(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٨٥).

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقال أيضًا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، فمجالات القرآن الكريم كثيرة ومواضيعه متعددة وقد تحدث هداية الناس بأحدها دون الآخر، لعلاقة ذلك بتنبُّه الأذهان واستنفارها لموضوع ما دون الآخر.

وفي باب التعظيم فقد شغل حيّزًا وافرًا أيضًا من خلال تلك الآيات التي تحدّث فيها الله تعالىٰ عن نفسه وخلقه ومخلوقاته وعظمتها وأمر بالتفكر فيها وتدبرّها، فقد ساقها أحيانا علىٰ وجه المدح حين، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران]، كما قد يسوقها علىٰ وجه الذم حين قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[يوسف]، فقد استدلّ الله تعالىٰ علىٰ عظمته من خلال أثر التدبر مدحًا أو ذمًا في عظم خلقه.

حين نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾[النمل]، ستتضح وبصورة دقيقة تلك النعم التي تدعو المشركين إلىٰ التدبر والتفكر فيها وفي صانعها وواضعها وخالقها، ولا يكون لهذا داعيا لولا عجز الإنسان عن الإتيان بمثلها، قال الطبري في قوله تعالىٰ من الآية السابقة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: «بَلْ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لَا يَعْلَمُونَ قَدْرَ عَظَمَةِ اللهِ، وَمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الضُّرِّ فِي إِشْرَاكِهِمْ فِي عِبَادَةِ اللهِ غَيْرَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّفْعِ فِي إِفْرَادِهِمُ اللهَ بِالْأُلُوهَةِ، وَإِخْلَاصِهِمْ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَبَرَاءَتِهِمْ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ»[1].

(١) تفسير الطبري (١٨/ ١١٨).

ولا يضرّ هذا التعداد في الخيرات والآلاء أن يعمّم مدلوله علىٰ الناس جميعا، حتىٰ وإن كانت بداية الآية موجهة للمشركين حين قال تعالىٰ في بداية الآية: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قد يأتي موطن الدعوة إلىٰ التفكر منبّها للعظمة الإلهية، ومرتبطًا بقضية أو قضايا ينبّه إليها القرآن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد]، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: «﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ فَبَيَّنَ مَنْ هُمْ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ فَعَلَيْكُمْ بِوَفَاءِ الْعَهْدِ، وَلَا تَنْقُضُوا هَذَا الْمِيثَاقَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ نَهَىٰ وَقَدَّمَ فِيهِ أَشَدَّ التَّقْدِمَةِ، فَذَكَرَهُ فِي بِضْعٍ وَعِشْرِينَ مَوْضِعًا، نَصِيحَةً لَكُمْ وَتَقَدِمَةً إِلَيْكُمْ وَحُجَّةً عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا يَعْظُمُ الْأَمْرُ بِمَا عَظَّمَهُ اللهُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ وَالْعَقْلِ، فَعَظِّمُوا مَا عَظَّمَ اللهُ»[(١)].

إذا كان القول قد سبق في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأنّها متعلقة بالمشركين، ومعناه: لا يعلمون قدر عظمة الله، فبنفس النسق تحدّث الله تعالىٰ أيضًا عن اليهود قائلا: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر]، وتفسير ذلك: «**هَذِهِ الرَّهْبَةُ الَّتِي لَكُمْ فِي صُدُورِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ مِنْ رَهْبَتِهِمْ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ، قَدْرَ عَظَمَةِ اللهِ**»[(٢)]، **ولو تدبروا هذه العظمة لما سبّقوا رهبة الناس علىٰ رهبته عزّ في علاه.**

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٥٠٧).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٣٦).

المبحث الثاني: الهدايات والتعظيم وآثارهما المقاصدية

نعالج هذا المبحث من جهة الآثار الناتجة عن تعظيم الله تعالىٰ لنفسه، ومن جانبين اثنين:

الآثار الفردية:

يحتل موضوع التعظيم في المنظومة القيمية الإنسانية مرتبة هامة، لا يمكننا تصوّر أن يرد تعظيم الله تعالىٰ لذاته في القرآن دون أن يكون له آثاره المقاصدية، وسنركز هنا علىٰ أهم نقطتين يمكن أن يقصدها هذا النمط من التعظيم:

الإقرار بالتوحيد والوحدانية: تركيز القرآن الكريم علىٰ التوحيد والعقائد كان أهم ما بدأ القرآن به في بدايات نزوله. لن نعمل علىٰ تحديد تعريف للتوحيد فكتب العقائد فيها ما يشفي الغليل، لكننا سنحدّد ما يدعّم تحقّقه في باب التعظيم وفي ذات الصدد تشير بعض الدراسات أنّه مما يساعد علىٰ تحقق التوحيد «الشهادة لله علىٰ وحدانيته في ذاته وصفاته، وتوجيه القصد له دون غيره في العبادات»[1]، والبعض الآخر يوحّد الهدف ويغير المسمىٰ إلىٰ «توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد، فالأول يكون الموحّد مُلزما بمعرفة الله وأسمائه وأفعاله وصفاته وعلوه فوق سماواته علىٰ عرشهن والثاني يُلزم بإفراد الله تعالىٰ بالعبادة دون غيره قولا وقصدا وفعلا»[2]، وفي كلا النمطين يؤدي التعظيم الذاتي دورا هاما في إرساء هذه الدعائم.

إنّ الدعوة المتواصلة للإنسان في القرآن الكريم للتفكر والتدبر لكفيلة بتماسك عقيدته، وإذا تحققت له عقيدة التوحيد فقد استقامت عبادته، لذلك ركّز القرآن الكريم في مراحله المكية علىٰ إلغاء الشركيات وتوطيد التوحيد، وإنّما ذلك للسلامة التي ستؤمنها هذه الخطوة الهامة في الانتساب لدين الإسلام.

إذا علمنا أنّ بعض المصنفات المهتمة بالتعريفات تجعل التوحيد «علىٰ ثلاثة أشياء معرفة الله تعالىٰ بالربوبية والإقرار بالوحدانية ونفي الأنداد عنه جملة»[3]، فسنُدرك سريعا أنّ تعظيم الله تعالىٰ لذاته في القرآن لم يخلو من تلك التأكيدات العقدية بمختلف المجالات بما في ذلك باب الأسماء أو الصفات.

---

(١) العقيدة في الله (٢٦٦).

(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (٢٢١).

(٣) التعريفات (٣٤).

لقد جاء التدليل علىٰ أثر هذا النمط من التعظيم علىٰ التوحيد في باب الهداية حين قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام: ٧١]، وفي باب الآثار الفردية نركز علىٰ أهم ما يدعّم متانة العقيدة وتماسكها وهي:

التوكل على العظيم الذي لا سبب في الكون سواه:

يرتبط التوكل بالتوحيد قطعا، لأنّه أحد نتائجه وآثاره، وقد دلّل الإمام الغزالي في الإحياء علىٰ هذا حين ربط بين الإيمان الذي هو التصديق، والذي يسمىٰ يقينا إذا كان إيمانا قويا، ومن أبوابه التوحيد الذي يبنىٰ عليه التوكل، ووسم هذا تحت باب «بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل»[(١)].

من المناسب في باب الهدايات الاستدلال بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [إبراهيم]، وإذا علمنا أنّ هذا كلام الرسل لأقوامهم كما نصّت علىٰ ذلك الآية الكريمة، فلا مجال لعدم التنبُّه إلىٰ تسليم الرسل المطلق لعظمة الله تعالىٰ وفي الآية قبلها قولهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [إبراهيم] في القرآن الكريم مواضع كثيرة تدلّل علىٰ التوكل، وإن سبق استدلالنا في باب التوحيد علىٰ تعظيم الله تعالىٰ لنفسه وتمجيده لذاته بالحياة والقيومية، ففي باب التوكل أيضًا بقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان].

إنّ من آثار التوكل أن يظهر للإنسان في حياته ما يستوجب تعظيم الله تعالىٰ حتىٰ جاء في تعابير بعض الزهاد قول أحدهم: «إني لأخرجُ من منزلي فما يقعُ بصري علىٰ شيءٍ إلا رأيتُ للهِ عليَّ فيه نعمةً ولي فيه عبرةٌ»[(٢)]، وفي (سورة التوبة) تجلّىٰ مظهر الدّعوة إلىٰ التوكل مقرونًا أيضًا بالتوحيد والإشارة إلىٰ عظمته تعالىٰ بعظمة عرشه جلّ في علاه، كما سبق ذكره، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٥).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٤).

تأكيدًا لتعظيم الله ذاته بتعظيم عرشه: «الَّذِي يَمْلِكُ كُلَّ مَا دُونَهُ، وَالْمُلُوكُ كُلُّهُمْ مَمَالِيكُهُ وَعَبِيدُهُ. وَإِنَّمَا عَنَىٰ بِوَصْفِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْخَبَرَ عَنْ جَمِيعِ مَا دُونَهُ أَنَّهُمْ عَبِيدُهُ وَفِي مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ؛ لِأَنَّ الْعَرْشَ الْعَظِيمَ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْمُلُوكِ، فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ ذُو الْعَرْشِ دُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ وَأَنَّهُ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ دُونَ غَيْرِهِ وَأَنَّ مَنْ دُونَ فِي سُلْطَانِهِ وَمُلْكِهِ جَارٍ عَلَيْهِ حُكْمُهُ وَقَضَاؤُهُ»(١).

لا يزال التوكل يقدّم نماذج ارتباطه بالتوحيد والهداية معا، فالعديد من كتب العقائد والزهديات تجتهد في تحديد أنواع التوكل، لكنها أيضا تتحدث عن أعظم أنواعه «في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم»(٢).

إذا كان من الهم القول أن التوكل تظهر حقيقته وصحته «ويبدو واضحا بصفة خاصة في المواقف الحرجة أو الصعبة التي يتعرض لها الفرد»(٣)، فمن الأهم أيضًا: أن نقول أنّ هذه المواقف يمكنها أن تُفرج لأنها من تدبير الله تعالىٰ الله وحده وتسييره، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾[الطلاق] العديد من المواضع التي ذُكر فيها التوكل بمشتقاته الدلالية يظهر التوكُّل مرتبطا بتعظيم الله تعالىٰ لذاته، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝١٣٢﴾ [النساء: ١٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦١﴾[الأنفال]، وقال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وغير هذا كثير ومتعدد.

من أهم مرتكزات التوكل الأخذ بالأسباب، فابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يجعل الدرجة الرابعة في حديثه عن حقيقة التوكل ودرجاته ما سماه «اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَىٰ اللهِ، وَاسْتِنَادُهُ إِلَيْهِ، وَسُكُونُهُ إِلَيْهِ. بِحَيْثُ لَا يَبْقَىٰ فِيهِ اضْطِرَابٌ مِنْ تَشْوِيشِ الْأَسْبَابِ، وَلَا سُكُونٍ إِلَيْهَا»(٤).

الخشية من الله تعالى دعاة للمراقبة الدائمة:

من أكثر آثار التعظيم روحانية علىٰ الفرد الخوف والوجل، بل هو من المقامات التي ربطها الله تعالىٰ بذاته في القرآن الكريم مباشرة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٩٩).
(٢) التوجيه الإسلامي للخدمة الاجتماعية، المنهج والمجالات (٢٢٩).
(٣) المرجع نفسه (٢١٩).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٢٢).

تُفضّلُ كتب التعريفات التفريق بين مصطلحات متقاربة للخشية، لكن ما تورده من فروق لا يضرُّ بمسالة التعظيم في شيء، إلا من جهة ما تعلّق بالعموم والخصوص، ويمكننا تفصيل هذا علىٰ النحو التالي:

أما الخوف: «فاضْطِرَابُ الْقَلْبِ وَحَرَكَتُهُ مِنْ تَذَكُّرِ الْمَخُوفِ»[١]، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل].

وأما الوجل: قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض شرحه وتفسيره لمدلول الفزع والمعرفة: «الفزع من عذاب الله فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير فيقال لمن تعاطىٰ ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله»[٢]، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[الأنفال].

أمّا الهيبة؛ فقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمّا (الهيبة): فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة والإجلال: تعظيم مقرون بالحب»[٣].

وأمّا الرهبة: الرهبة طول الخوف واستمراره ومن ثم قيل للراهب راهب لأنه يديم الخوف[٤]، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف].

وأمَّا الخشية؛ فـ «خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشىٰ منه، ولذلك خصّ العلماء بها في قوله»[٥]، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]، وبينها وبين الخوف تداخل ويلاحظ من خلال ما سبق أنّ كل هذه

(١) المدارج (١/ ٥٠٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٦٦).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٥١٣).
(٤) الفروق اللغوية (٢٤١).
(٥) المفردات في غريب القرآن (٢٤٣).

المعاني لا تبتعد عن مدلول تعظيم الله تعالىٰ بل هي من صميمه، وبين هذا وذاك جمع بعض العلماء بين بعض هذه الفروق في قولهم: «فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء العارفين والهيبة للمحبين والإجلال للمقربين وعلىٰ قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية»(١).

إنّ توظيف مصطلح الخشية في المداخلة لم يكن اختيار دقة دلالة فكل هذه المصطلحات تدلُّ من جهتها علىٰ التعظيم، لكنه توظيف تنويع في الاستدلال علىٰ عظمة الله تعالىٰ بمختلف الألفاظ والمصطلحات. والعديد من كتب التعريفات والمفردات وحتىٰ التفاسير توحي بذلك التداخل الموجود بينها، قال الرازي علىٰ سبيل المثال متحدّثا عن الخوف والخشية: «أَنَّ الْخَوْفَ خَشْيَةٌ سَبَبُهَا ذُلُّ الْخَاشِي، وَالْخَشْيَةُ خَوْفٌ سَبَبُهُ عَظَمَةُ الْمَخْشِيِّ، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر]؛ لأنهم عرفوا عظمة الله فخافوه لا لذل منهم، بل لعظمة جانب الله»(٢).

وعلىٰ وفق هذا يمكننا أنّ نفهم كيف عرّف الله تعالىٰ المؤمنين في الكتاب حين قال جامعا من صفاتهم الخشية والتوكل معا: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال]، جاء في (تفسير الطبري): «الْمُؤْمِنَ هُوَ الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قَلْبُهُ وَانْقَادَ لَأَمْرِهِ وَخَضَعَ لَذِكْرِهِ خَوْفًا مِنْهُ وَفَرَقًا مِنْ عِقَابِهِ، وَإِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِ آيَاتُ كِتَابِهِ صَدَّقَ بِهَا وَأَيْقَنَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَازْدَادَ بِتَصْدِيقِهِ بِذَلِكَ إِلَىٰ تَصْدِيقِهِ بِمَا كَانَ قَدْ بَلَغَهُ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ تَصْدِيقًا وَذَلِكَ هُوَ زِيَادَةُ مَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِ اللهِ إِيَّاهُمْ إِيمَانًا. وَبِاللهِ يُوقِنُونَ فِي أَنَّ قَضَاءَهُ فِيهِمْ مَاضٍ فَلَا يَرْجُونَ غَيْرَهُ وَلَا يَرْهَبُونَ سِوَاهُ»(٣)، وجاء في (تفسير البيضاويّ) ما يعيننا في الجمع بين الخشية والتوكل في تفسير هذه الآية أنّ الله تعالىٰ وصفهم بالمؤمنين حقًّا «لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل»(٤).

الآثار المجتمعية:

الحديث عن الآثار المجتمعية منطلق أساسا من الآثار الفردية، فما تحقق في الأفراد سيتحقق في المجتمع، إنّ القناعة الفردية بمفهوم تعظيم الله تعالىٰ لذاته وفهمها وإدراك

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٣).
(٢) التفسير الكبير (٢٩/ ٣٦٩).
(٣) تفسير الطبري (١١/ ٢٧).
(٤) أنوار التنزيل (٣/ ٥٠).

مقاصدها سيكون منتجا لمجتمع متوازن ومعتدل ومحمي من كل احتراق فكري أو اجتماعي أو ديني، بل «إنَّ ترسيخَ قيمةِ تعظيمِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- يعالجُ كثيرًا من مشاكلِ المجتمعِ الأمنيةِ والاقتصاديةِ والإداريةِ بأيسرِ السبلِ وأقلِّ التكاليفِ والأعباءِ علىٰ الدولةِ»(١).

ويمكننا أن نحلّل هذا من خلال نقطتين أساسيتين نظنهما من الآثار المجتمعية لمقام تعظيم الله تعالىٰ لذاته:

ترسيخ قيمة التضامن الاجتماعي:

التضامن الاجتماعي واحد من أكثر مظاهر تماسك المجتمعات، ونعتقد بحقٍ أنّ مختلف المواضع التي تحدّث فيها الله تعالىٰ عن نفسه معظّما وممجّدا كانت من أكثر ما صنع الزهد في أعلام المجتمعات، لو درسنا مثلا بالتدقيق الآيات التي يصف الله تعالىٰ نفسه بأنّه الرزاق، فسيكون عاملا للصبر والتكافل بين الناس، وفي مواطن كثيرة ربط الله تعالىٰ نداءه للمؤمنين بالإنفاق مما رزقهم، مما يوضّح توجيهات القرآن بضمان الرزق وكفالته.

من بين المواضع التي أشار فيها الله تعالىٰ إلىٰ الرزق في نداءاته لمجتمع الإيمان ربط ذلك بتوفر إحدىٰ القيم الإيمانية في نفوس أفراد المجتمع، وهي قيمة الشكر وربطها أيضا بالتوحيد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة]، ولا يمكن أن يكون ذكر قيمة الشكر لغير مقصد، فالرزق جاء عاما وقبوله قدره وطبيعته وحجمه لا يكون إلا بشكر الله تعالىٰ، وتوفر مثل هذه القيمة في المجتمع الإسلامي سيكون عاملا هاما فيس التكافل والتضامن بين أفراده.

إذا أردنا تفصيلا جامعا لظاهرة التكافل الاجتماعي كأحد آثار تعظيم الله تعالىٰ لذاته، فذلك من خلال مظاهره، كإعانة الفقير، والمريض والمعوز وغيرها من الفئات الاجتماعية المحتاجة، قد يقول قائل إنّ هذه المظاهر تتوفر أيضا في المجتمعات الغربية وهي غير مسلمة ولا علاقة لتصرفاته الإنسانية هذه بالتعظيم، رغم شرعية التساؤل فإنّ هذه المجتمعات الغربية لم تتأسّس في أعرافها وتقاليدها من فراغ، وبعض هذه التكافلات لها بُعدها الديني بحكم الكتب السماوية المتفقة في بعض أصولها مع الإسلام، أما البعد الإنساني فغير منعدم في المجتمع الإسلامي.

---

(١) تعظيم الله، تأملات وقصائد (١٣).

يتجلّىٰ أثر تعظيم الله تعالىٰ لذاته علىٰ المجتمع وتكافله من خلال بيان موجبات توصيف المجتمع بالإيمان، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الصَّبر: «مِنْ شِدَّةٍ فِي أَمْرِ اللهِ، وَنَالَهُمْ مِنْ مَكْرُوهٍ فِي جَنْبِهِ»[(١)]، وفي موضع آخر: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال]، فقد نبّه الله تعالىٰ المجتمع إلىٰ عظمته وخوفه من خلال قوة إيمانهم وذكرهم له، وربط كل هذا بقيم كثيرة وفرائض كالصبر والإنفاق والتوكل وإقام الصلاة.

فالخوف من الله عبادة عظيمة تدل علىٰ تعظيم الله وإجلاله وتقواه ومراقبته والحياء منه، بل إنّ الخوف من الله من أخص أوصاف المؤمنين كما في الآية سابقا، وكما في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البيِّنة].

من أهم ما نشير إليه في أساسيات التكافل والتضامن الاجتماعي قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحُجُرات]، ولن يكون صعبا ربط هذه الآية بالعظمة وما يتعلّق بها، ذلك أنّ الله تعالىٰ ختم الآية بصفتين من صفاته، وهي العليم والخبير، فالمجتمعات الإنسانية قاطبة وعلىٰ كثرتها وتنوع لغاتها وطبائعها وثقافاتها وعاداتها وتقاليدها وحتىٰ دياناتها لن تصل مهما تعارفت واجتمعت إلىٰ علم الله تعالىٰ وخبرته، قال ابن كثير في تفسير العليم الخبير: «عَلِيمٌ بِكُمْ خَبِيرٌ بِأُمُورِكُمْ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُفَضِّلُ مَنْ يَشَاءُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ»[(٢)]، وهذه من تعظيم الله تعالىٰ لذاته من الوجه الذي تدلُّ عليه. كما قال في تفسير علم الله تعالىٰ: «يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفىٰ عليه شيء في الأرض، ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير، حتىٰ الذر في الظلمات»[(٣)]. وعليه فمهما تعارفت هذه الشعوب القبائل فعظمة الله أوسع وأقدر علىٰ الإلمام بكل ما يتعلّق بها من أمور الدين والدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٨).

(٣) المصدر نفسه (٨/ ٧٩).

وأما قوله الخبير فقد جاء عند الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: «إِنَّ اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ ذُو عِلْمٍ بِأَتْقَاكُمْ عِنْدَ اللهِ وَأَكْرَمِكُمْ عِنْدَهُ، ذُو خِبْرَةٍ بِكُمْ وَبِمَصَالِحِكُمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِكُمْ، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ»[١]. وقال في تفسير قوله (خبيرا): «إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ ذُو خِبْرَةٍ وَعِلْمٍ بِأُمُورِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَالْمُحِقُّ مِنْهُمْ وَالْمُبْطِلُ، وَالْمَهْدِيُّ وَالضَّالُّ»[٢]، وهذا ما تعمل عليه الشعوب والقبائل التي تُشكل مختلف المجتمعات الإنسانية. وبالتالي فإنّ اجتماع علم الله تعالىٰ وخبرته في تسيير المجتمعات هي من دلائل تعظيم الله تعالىٰ لذاته، والمجتمعات الإنسانية مطالبة بهذا التواصل والتعارف والتقارب لأنّه واحد من أنجع سبل التكافل والتضامن المأمور بها الناس في القرآن الكريم.

اجتماع الأمة على قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم تجليات أثر تعظيم الله تعالىٰ لذاته، من المناسب الاستدلال علىٰ هذا بدعوة الله تعالىٰ المجتمع المسلم إلىٰ تمثُّل هذه القيمة، قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران].

من المناسب البحث في الآليات المساعدة للمجتمع علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحيلنا القرآن الكريم إلىٰ موضع آخر جاء فيه تعظيم الله لذاته موّجها إلىٰ المجتمع، ومنبّها إلىٰ سنة من سنن الكون وهي سنة تمكين المجتمع في الأرض، فالله عظّم نفسه حين ربط تمكين الأمة بتوحيده وغد الشرك به، قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور]، حين نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم]، فسنُدرك أنّ التمكين في الأرض أحد نتائج الخوف من الله تعالىٰ وهو واحد من أهم ما مجّد الله تعالىٰ نفسه به في القرآن الكريم ومنها: قوله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح]، جاء في (تفسير الطبري) في تفسير الآية: «مالكم

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٨٢).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٩٢).

لا تخافون لله عظمة»[١]، غير بعيد عن دعوة القرآن الكريم الناس إلىٰ التعارف، جاء توجيه القرآن الكريم إلىٰ ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم، قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران]،وبعدها بآيات وفي السورة نفسها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾، وواضح في هذا المقام تقديم قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن النكر علىٰ الإيمان ذاته. وقد تتقدّم علىٰ الفرائض أيضًا كالصّلاة والزّكاة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة]، إذا اتفقنا أنّ طاعة الله ورسوله واجبة، فإنّ ذلك من تمام التعظيم له عزّ في علاه، وكمال العبادة لا يتمُّ إلا بصدق الإيمان، لذلك عدّد الله تعالىٰ بعض صفات المؤمنين واصفا من توفّرت فيهم هذه الموجبات بالمرحومين، لكنه عزّ في علاه ختم الآية بما يُظهر تعظيمه لذاته عزَّ وجلَّ، حين قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، «فهو ذُو عِزَّةٍ فِي انْتِقَامِهِ مِمَّنِ انْتَقَمَ مِنْ خَلْقِهِ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ وَكُفْرِهِ بِهِ، لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الِانْتِقَامِ مِنْهُ مَانِعٌ وَلَا يَنْصُرُهُ مِنْهُ نَاصِرٌ، حَكِيمٌ فِي انْتِقَامِهِ مِنْهُمْ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ»[٢]. ولا فرق هنا بين عزيز حكيم، وبين عليم خبير في التدليل علىٰ تعظيم الله تعالىٰ لذاته في مختلف مواضيع القرآن ومجالاته.

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٥٦).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٥٥٧).

المبحث الثالث: أهمية مسالة تعظيم الله تعالى لنفسه في المعرفة الإيمانية

من المناسب جدًّا أن نستهل هذا المبحث بكلام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين تناول الحديث عن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وجعل من بينها منزلة التعظيم، قال: «وَهَذِهِ الْمَنْزِلَةُ تَابِعَةٌ لِلْمَعْرِفَةِ. فَعَلَىٰ قَدْرِ الْمَعْرِفَةِ يَكُونُ تَعْظِيمُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ فِي الْقَلْبِ. وَأَعْرَفُ النَّاسِ بِهِ: أَشَدُّهُمْ لَهُ تَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَىٰ مَنْ لَمْ يُعَظِّمْهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ. وَلَا عَرَفَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ. وَلَا وَصَفَهُ حَقَّ صِفَتِهِ. وَأَقْوَالُهُمْ تَدُورُ عَلَىٰ هَذَا»[1]. ولو علمنا أنّ أصل تعظيم الله تعالىٰ هو معرفته، فإنّ الله تعالىٰ يعظّم نفسه من خلال الدعوة إلىٰ معرفته من طريقين اثنين: «النظر في مفعولاته، والتفكر في آياته وتدبّرها، فتلك آياته المشهودة وهذه آياته المسموعة المعقولة»[2]، تقتصي معرفة الله تعالىٰ أن يدرك المسلم أنّ كل مواطن تعظيمه تعالىٰ لنفسه وفي أي مجال أو موضوع كوني كان حياتي أو في خلق الإنسان والناس أو غيرها فهو عزّ في علاه «بائن عن خلقه ينبغي أن نعرفه كما وصف تعالىٰ نفسه دون تمثيل أو تكييف أو تعطيل»[3]، وينبغي معرفة عظمته التي نبّه الخلق إليها تمام كما عظّم ذاته بها.

لقد اجتمع لتعظيم الله تعالىٰ والأمر بتمجيده والحرص عليه ثلاثية القرآن الكريم والسنة النبوية والحديث القدسي، فإذا كان الأمر بتسبيح الله تعالىٰ ووصفه بالعظمة قد جاء في القرآن الكريم حين قال عزّ في علاه: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، الحاقة: ٥٢]، وجاء أيضًا في السُّنَّة النَّبوية الحديث الذي سيرد تخريجه لاحقًا في قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**»، فقد جاء في الحديث القدسي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يَعْنِي قَالَ اللهُ-: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَدْخَلْتُهُ جَهَنَّمَ**»[4]، للتدليل علىٰ اختصاص مدلولها الواسع والجامع والشامل والأزلي بالله تعالىٰ وحده.

يمكن الإشارة أنّ تقدير الله تعالىٰ والمأمور به الناس في القرآن الكريم قد يتفاوت الناس فيه حسب قدراتهم العقلية والإدراكية والعلمية أيضا، فمن العوام من يقدّر الله تعالىٰ ويعظّمه

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٣).

(٢) تعظيم الله، تأملات وقصائد (٤٤).

(٣) معرفة الله -عزَّ وجلَّ- وطريق الوصول إليه عند ابن تيمية (٩٥).

(٤) أخرجه أحمد (٨٨٩٤).

علىٰ أبسط ما يملك أو يرىٰ، والعلماء يقدّرون الله تعالىٰ ويعظمونه ويوجّهون إليه لما ظهر لهم من القدرة عند الله وتمكّنهم من تفحص معاني أسمائه وصفاته وتصرفاته في خلقه وكونه وعباده، والله تعالىٰ يرضىٰ من الجميع كل حسب مقدروه ذلك: «أن التعظيم له سبحانه والمعرفة والعبادة ووصفه بما وصف به نفسه قد أمر به عباده وأعانهم عليه ورضي منهم بمقدورهم من ذلك وإن كانوا لا يقدرونه قدره ولا يقدر أحد من العباد قدره فإنه إذا كانت السماوات السبع في يده كالخردلة في يد أحدنا والأرضون السبع في يده الأخرىٰ كذلك فكيف يقدره حق قدره من أنكر أن يكون له يدان فضلا عن أن يقبض بهما شيئا»[(١)].

لا تزال المداخلة في تأكيد متواصل لأهمية قضية التوحيد وعلاقتها بتعظيم الله تعالىٰ لذاته، وهي أيضا مرتبطة بمعرفة الله تعالىٰ، فمن دون معرفة حقيقية لا توحيد ولا تعظيم، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد]، وإذا علمنا أنّ تعظيم الله تعالىٰ لذاته جاء في القرآن الكريم شاملا لذاته، وأسمائه وصفاته وملكه وسلطانه وخلقه وشرعه وأحكامه وعلمه وكلامه، فيمكننا اعتبار كل هذه المذكورات سبلا إلىٰ معرفته وبالتالي تعظيمه، ذلك أنّ الله تعالىٰ استدل علىٰ عظمه ذاته من خلال عظمة خلقه ومخلوقاته، وعليه «فدلائل معرفة الله تحصل بمطلق النظر المؤدي إليها، وهو كل ما يتوصل به إلىٰ الاستدلال علىٰ وجود الله تعالىٰ والإقرار بربوبيته من الأدلة النقلية، والعقلية، والفطرية والمشاهدة، ومنها: الاستدلال بالمخلوق علىٰ الخالق و بالصنعة علىٰ الصانع»[(٢)].

إنّ في مواطن تعظيم الله تعالىٰ لذاته لإشارات عظيمة ينبغي التنبّه لها، فإذا كان تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح]، يعني: ما لكم لا تخافون لله عظمة، كما سبق ذكره عند الطبري، فعند ابن القيم وجه آخر لا يقل أهمية، فقد استدل بالآية علىٰ اعتبار «أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره فانك توقّر المخلوق وتجلّه أن يراك في حال لا توقّر الله أن يراك عليها»[(٣)]، ويحيلنا في موضع آخر إلىٰ ما ينفرد به الله تعالىٰ فيجعل «حقيقة التوحيد إفراده تعالىٰ بالتعظيم»[(٤)]، وكل مواضع تعظيمه تعالىٰ لذاته تدلُّ بمسلك أو بآخر إلىٰ هذه الحقيقة.

---

(١) الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (٤/ ١٣٦٤).

(٢) آراء ابن حجر الهيثمي الاعتقادية (١٢٠).

(٣) الفوائد (١٨٧).

(٤) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (٢/ ٨٥٦).

ثالثة التعظيم والإيمان والعبادة:

من المفيد الاستهلال بالتأكيد علىٰ مسألتين في التعظيم، أما المسألة الأولىٰ ففي جانبه العام من جهة اعتباره أعظم العبادات، مهما كان طريق التدليل إليه في القرآن، بل هو الذي يعطي العبادةَ روحَها وجلالَها، وهو الذي يجعلُها عبادةً مقبولةً خالصةً صحيحةً تامَّةَ الشروطِ والأركانِ، أمَّا عبادةٌ بلا تعظيمٍ فإنها كالجسدِ بلا روحٍ[١].

ليس عدلا أن تصل المداخلة إلىٰ هذا التقييد دون التعريج علىٰ حديث جبريل مع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حين سأله: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[٢]. فقد جاء في شروح الحديث ما يدل علىٰ علاقة هذا بالمعرفة والتعظيم معا، فقد «أشار بهذا الجواب إلىٰ مقامين، مقام المشاهدة، ومقام المراقبة، وأرفعهما الأول، وهو أن تغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه، حتىٰ كأنه يراه بعينه، وهو قوله: (كأنك تراه) أي: وهو يراك، والثاني: أن يستحضر أن الحق مطلع عليه، يرىٰ كل ما يعمل، وهو قوله: "فإنه يراك" وهاتان الحالتان يثمرهُما معرفةُ الله وخشيته»[٣].

وأما المسألة الثانية ففي جانبه الخاص من جهة تعظيمه تعالىٰ لذاته، بحيث يتخذ تأكيدا متنوعا جامعا لكل ما يليق بجلاله ومانعا من كل ما ينقص منه، لذلك يأتي في الدعاء أن لا أحد يثني علىٰ الخالق تعالىٰ كما أثنىٰ هو علىٰ نفسه كما في (صحيح مسلم): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَىٰ بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»[٤]، قال (صاحب الإحياء): «وليس المعنىٰ أني أعجز عن التعبير عمّا أدركته، بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله»[٥].

ويؤيد تمام هذا الثناء تعظيم الله تعالىٰ لذاته مقرونا بتمام العبادة في القرآن حين قال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾[طه]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ:

(١) تعظيم الله، تأملات وقصائد (١٧).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٠).
(٣) كوثر المعاني الدّراري في كشف خبايا صحيح البخاري (٢/ ٣٤٨).
(٤) أخرجه مسلم (٢٢٢).
(٥) إحياء علوم الدين (١/ ١٠١).

إِنَّنِي أَنَا الْمَعْبُودُ الَّذِي لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَلَا تَعْبُدْ غَيْرِي، فَإِنَّهُ لَا مَعْبُودَ تَجُوزُ أَوْ تَصْلُحُ لَهُ الْعِبَادَةُ سِوَايَ ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ يَقُولُ: فَأَخْلِصِ الْعِبَادَةَ لِي دُونَ كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِي»[١].

يتطلب الإيمان والعبادة علىٰ وجههما الأتم مجاهدة النفس واصطباره عليهما، وإنما يهون هذا عند حقيقة معرفة العظمة الإلهية، قال المروزي: «وَإِنَّمَا الْمَعْرِفَةُ الَّتِي هِيَ إِيمَانٌ هِيَ مَعْرِفَةُ تَعْظِيمِ اللهِ وَجَلَالِهِ وَهَيْبَتِهِ، فَتَعَظُّمُ الْمَعْرِفَةِ تُعَظِّمُ الْقَدْرَ مَعْرِفَةٌ فَوْقَ مَعْرِفَةِ الْإِقْرَارِ فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ الْمُصَدِّقُ الَّذِي لَا يَجِدُ مَحِيصًا عَنِ الْإِجْلَالِ وَالْخُضُوعِ لِلَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَلَا تُطَاوِعُهُ نَفْسُهُ وَلَا يَصْفُو لِنَفْسِهِ رِيبَةَ الْكُفْرِ لِأَنَّ النِّيَّةَ فِي الْكُفْرِ اسْتِهَانَةٌ بِالرَّبِّ وَالِاسْتِهَانَةُ ضِدُّ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ وَالْهَيْبَةِ فَإِذَا عَظُمَتْ مَعْرِفَتُهُ تَعْظِيمَ قَدْرِهِ لَمْ تَبُحْ نَفْسُهُ بِنِيَّةِ الْكُفْرِ وَلَوْ قُطِعَ أَعْضَاؤُهُ»[٢].

من أهم ما يرتبط بالإيمان والعبادة في باب التعظيم، السب المنهي عنه شرعًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾ [الأنعام]، فالله تعالىٰ منع سب الأصنام حتىٰ لا يكون ذريعة للكفار في سب الله تعالىٰ، وفيه دليل علىٰ سبّه عزّ في علاه داخل في عدم تقديره حقّ قدره، بل هو منافٍ للإيمان الظاهر والباطن معا، أما الظاهر فلأنه ينافي قول القلب في التصديق بالله تعالىٰ والإيمان بوجوده وحقه بالعبادة، وأما الباطن فلأنه ينافي عمل القلب في محبة الله وتعظيمه وتوقيره[٣]، وشأن هذا النهي والنفي تماما كما ينافي الشرك التوحيد وهو منهي عنه أيضا ومحرم حرمة شديدة.

قريبا من هذا فقد جعل القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر القلب نوعان أحدهما وهو أرفع الأذكار وأجلها الفكر في عظمة الله تعالىٰ وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سماواته وأرضه، والثاني ذكره بالقلب عند الأمر والنهىٰ فيمتثل ما أمر به ويترك ما نهىٰ عنه ويقف عما أشكل»[٤]، وفي كلاهما تمام التعظيم والإقرار والإجلال.

لا يمكن للمؤمن أن يغفل عن التنبيهات القرآنية في مواطن تعظيم الله تعالىٰ لذاته، ولا يمكن لأي كان أيضًا أن يميل بتفسير هذه المواطن ميلا غير سليم، فالله تعالىٰ غني عن

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣١).
(٢) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٧٥٩).
(٣) تعظيم الله تعالىٰ وحكم شاتمه (٢٠).
(٤) شرح صحيح مسلم (٧/ ١٥).

عباده، وغني عن مدح الناس له، لكنّه عزّ في علاه ينبّه الناس إلىٰ عظمته والأمر بتعظيمه لما فيها من الأجر والثواب، فهي أساس الإيمان والعبادة، تورد في النفوس الخوف والرجاء، ولما كان الناس مخاطبون بخطاب القرآن، وهم في حاجة إلىٰ قضاء حوائجهم والاستعانة بالله علىٰ شؤون دنياهم وتفريج كرباتهم وتسهيل سبلهم وطرقهم، فقد بيّن الله تعالىٰ للناس أوجه الدعاء من خلال أسمائه الحسنىٰ، وهي موطن التعظيم والإجلال، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو سبحانه يدعو عباده إلىٰ أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديتها»[(١)].

لم تغفل المداخلة الحديث عن وسائل تحقيق التعظيم من خلال الإقرار بأسماء الله تعالىٰ وإثبات ما أثبته لذاته من صفات فذلك مبسوط في كتب العقائد بالتفصيل، لكنها فضّلت الحرص علىٰ شيء من التحليل الذي يتجاوز بها من فهمها النظري أو السهل في ظاهرها عند الناس، إلىٰ واقعها العملي لارتباطها الوثيق بواجبات الدين كالعبادة والإيمان، أو بالزهديات والرقائق كالخوف والرجاء والقرآن الكريم حافل بهذا التدليل.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٢١).

الخاتمة

من المناسب في ختام المداخلة تدعيم الحديث عن آثار التعظيم في باب العقائد بالإشارة إلىٰ بعض الأخطاء العقدية التي تخلُّ بالتعظيم، فقد شاع عند بعض الناس حين الإقدام علىٰ آمر قولهم: «أنا أديت ما علي والباقي علىٰ الله تعالىٰ»، وهو خطأ عقدي ينبغي التنبيه إليه، فالأصل أنا أديت ما وفقني الله تعالىٰ إليه وكل شيء علىٰ الله تعالىٰ، وأصله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الكهف]، كما يمكننا تسجيل النقاط التالية:

- عظمة الشيء دليل علىٰ عظمة صانعه أو واجده، فجميع مخلوقات الله تعالىٰ في هذه الدنيا، وما هو في عالم الغيب دالة عليه وعلىٰ عظمته، وقد وقع بها التحدي في القرآن الكريم.
- معرفة العظمة الإلهية مسألة تقريبية لاستحالة الإحاطة العقلية بذات الله تعالىٰ وكامل عظمته، والمطلوب منه الإقرار بها.
- لا مجال للاجتهاد في تصوير حقيقة العظمة الإلهية لتنصيص الله تعالىٰ علىٰ عظمته في كثير من نصوص القرآن الكريم، وإنما المطلوب شرح الآيات المتعلقة بالتعظيم حسب موضوعها ومجالها كما هو في كتب التفسير، أو ما دلّلت عليه السنة النبوية الشريفة.
- تنويع الله تعالىٰ في التدليل علىٰ عظمته توجيه للنفس والعقل البشريين علىٰ ملكيته المطلقة للكون والدنيا والآخرة، وفي هذا التنويع مساحة هداية واسعة، فالناس مختلفون في الإدراك والفهم، وبالتالي فهم مختلفون في أسباب الهداية.
- لا فرق بين المجالات التي تحدّث فيها الله تعالىٰ علىٰ ذاته من جهة قدرها وحجمها وقوتها في التدليل علىٰ العظمة الإلهية، فما دلّ أكثره علىٰ العظمة دلّ أقلّه أيضا، شأنه في ذلك شأن الدراسات البيانية التي أقرّت أنّ قليل القرآن وأكثره سواء في مسألة الإعجاز.
- موضوع التعظيم في القرآن الكريم لا يعمل في شيء من حاجة الخالق تعالىٰ لعباده أو مدحهم له عزّ في علاه، بقدر ما هو مأمور به وواجب الاعتقاد به، فهو سبيل حق العبادة والإيمان.

يمكن للمداخلة أن تؤكد علىٰ توصية واحدة وهي دعوة كرسي الهدايات القرآنية إلىٰ فضل السبق في إنجاز «**مشروع موسوعة هدايات القرآن**» بحيث يتم فيها حصر كل المصطلحات وتحديد كل مجالاتها ومواضيعها ومفرداتها، وطبعها بعد إتمامها وتزويد

جامعات القرآن الكريم، والجامعات الإسلامية ومراكز البحث الإسلامية والقرآنية في ربوع العالم بنسخ من الموسوعة مع إمكانية ترجمتها إلىٰ لغات مختلفة، وبالتالي يتمكن الكرسي من الإسهام الفعّال في تبليغ هدايات القرآن وتوسيع نطاق الدعوة بها.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

أولا: المصادر

١- إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، الجوزية ابن القيم، تحقيق محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٣٢هـ.

٢- . إحياء علوم الدين، الغزالي، أبو حامد، دار المعرفة، بيروت.

٣- أنوار التنزيل وأسرار التنزيل، البيضاوي ناصر الدين أبو سعيد، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٤- تحفة الأريب بما في القران من الغريب، الأندلسي، أبو حيان، تحقيق سمير المجذوب، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٥- الترغيب والترهيب، الأصبهاني أسماعيل بن محمد، تحقيق أيمن بن صالح بن شعبان، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٦- التفسير الكبير، الرازي فخر الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٧- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـن١٩٩٩م.

٨- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١.

٩- التعريفات، الجرجاني علي بن محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٠- تعظيم قدر الصلاة، المروزي أبو عبد الله محمد بن ناصر، تحقيق عبد الرحمان عبد الجبار الفريواني، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦.

١١- جامع البيان عن تأويل أي القرآن، الطبري، محمد بن جرير، تحقيق، عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٢- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي أبو عبد الله، تحقيق أحمد البرذوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

١٣- الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار النشر، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٢ هـ-١٩٩٢، ط.

١٤- زاد المعاد في هدي خير العباد، الجوزية ابن القيم، تحقيق شعيب الارناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، لبنان، ط١٤ ج٤.. ١٤٠٧هـ،١٩٨٦م.

١٥- سنن أبي داود، السجستاني أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

١٦- شرح مسلم، النووي، أبو زكريا محي الدين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

١٧- . صحيح البخاري البخاري، أبو عبد الله، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النحاة، باب قوله والأرض جميعا قبضته يوم القيامة.

١٨- الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة، الجوزية ابن القيم، تحقيق علي بن محمد الدخيل، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

١٩- صحيح مسلم، بن الحجاج مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

٢٠- الفوائد، الجوزية ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م

٢١- الفروق اللغوية، العسكري، أبو هلال، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة،

٢٢- كتاب العين. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن بن أحمد، تحقيق، مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٢٣- المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني الراغب أبو القاسم الحسين، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

٢٤- مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، تحقيق عبد الرحمان بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد، السعودية، ١٤١٦هـ ١٩٩٥.

٢٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، الجوزية ابن القيم، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

٢٦- منازل السائرين، الهروي عبد الله الأنصاري، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٨ - ١٩٨٨.

ثانيا: المراجع

٢٧- الله يتحدث عن نفسه، الأشقر عمر سليمان، دار النفائس، الأردن، ط١، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤.

٢٨- آراء ابن حجر الهيثمي الاعتقادية عرض وتقويم في ضوء عقيدة السلف، الشايع محمد بن عبد العزيز، مكتبة دار المنهاج، السعودية، ط١، ١٤٢٧.

٢٩- التوجيه الإسلامي للخدمة الاجتماعية، المنهج والمجالات، الرجب إبراهيم عبد الرحمن، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٣٠- تعظيم الله تعالىٰ وحكم شاتمه، الطريفي عبد العزيز، دار المنهاج، ط١، ١٤٢٤هـ ٢٠١٢م.

٣١- تعظيم الله، تأملات وقصائد، المزيد أحمد بن عثمان، مدار الوطن للنشر، ط١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١.

٣٢- عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة، القحطاني، سعيد بن علي بن وهف، مطبعة سفير، الرياض، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

٣٣- العقيدة في الله، الأشقر عمر سليمان، دار النفائس، الأردن، ط١٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩.

٣٤- كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، الشنقيطي محمد الخضر بن سيد عبد الله، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٣٥- معرفة الله -عزَّ وجلَّ- وطريق الوصول إليه عند ابن تيمية، حلمي مصطفىٰ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤، ١٤٢٤م.

٣٦- مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، ضميرية عثمان جمعة، تقديم عبد الله بن عبد الكريم العبادي، مكتبة السوادي للتوزيع، ط٢، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

الموضوعات

المقدمة	٢
المبحث الأول: مواضع تعظيم الله لذاته في القرآن الكريم ومجالاته الموضوعاتية	٤
المبحث الثاني: الهدايات والتعظيم وآثارهما المقاصدية	١١
المبحث الثالث: أهمية مسالة تعظيم الله تعالىٰ لنفسه في المعرفة الإيمانية	٢٠
الخاتمة	٢٥
المصادر والمراجع	٢٧
الموضوعات	٣٠